

دراسات فى التاريخ البيزنطى

يبدو أن أعمار الإمبراطوريات الكبيرة فى التاريخ تطول أو تقصر حسبما يستقيم لها من مقاييس المرونة السياسية والتأقلم الحضارى ، ومن تلك الإمبراطورية البيزنطية التى وقفت وقفة الحارس البصير ، والحصن الحامى لأوروبا والمسيحية ، مما عسى يتمخض عنه جوف آسيا من الحركات ، وما تنطوى عليه تلك الحركات من رغبة فى السيطرة على أوروبا أو العمل على نشر دين من الأديان الجديدة . ذلك أن سلسلة الكوارث التى أحاطت بالدولة البيزنطية منذ القرن الخامس الميلادى دلت على أن هذه الدولة تجابه أخطاراً جسيمة كفيلة بتقويض دعائمها والقضاء عليها ، غير أن الدولة البيزنطية دلت بدورها على صلابه عود وثبات أمام تلك الكوارث ، بل واجهتها وخرجت منها ظافرة ذات سمعة عالية وهيبه عند جميع الدول الأوروبية فى العصور الوسطى ؛ والفضل فى ذلك كله — مما تمتلئ به الحوليات البيزنطية — يرجع إلى أفراد من الأباطرة البيزنطيين الذين تداولوا عرش هذه الدولة فى تلك الأحوال العصيبة بالذات . ففضلاً عما امتاز به أولئك الأباطرة البيزنطيون من كياسه ودهاء وعلو كعب فى السياسة ، وما انفردوا به من مقدره فى وضع الخطط والمناهج ، حرص معظمهم كذلك على اتخاذ تلك الخطط والمناهج قواعد أساسية يسيرون على مقتضاها خالفاً عن سالف .

ومن هذه الخطط والمناهج ما اقتضته الأوضاع السياسية فى الدولة البيزنطية منذ القرن السابع الميلادى ، حين لم تكد الدولة البيزنطية تنعم بانتصارها على الساسانيين فى النصف الأول من عهد الإمبراطور هرقل حتى بدأت موجة الفتوحات الإسلامية تتلغ أسمن أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، أى سوريا ومصر ، وتهضم فى سرعة فائقة ثمرة مجهودات استغرقت قروناً طويلة ضد الساسانيين . على أن الموجة الإسلامية توقفت مدة طويلة عند أطراف آسيا الصغرى ، لأسباب أهمها التنظيم الإدارى الذى أنشأه الأباطرة البيزنطيون بأقاليم آسيا الصغرى كلها ، وهى الأقاليم التى غدت — بعد ذهاب الشام ومصر إلى المسلمين — قلب الإمبراطورية

الناقص ، ومصدر الموارد من المال والرجال .

بدأ اهتمام الأباطرة البيزنطيين بذلك التنظيم الإداري في أقاليم آسيا الصغرى منذ عهد هرقل ، وكان ذلك التنظيم في الواقع خروجاً على التقليد الروماني الذي وضع أسسه الإمبراطور دقلديانوس أواخر القرن الثالث الميلادي ، وفي ذلك وحده دلالة واضحة على مرونة السياسة البيزنطية وعدم إحجامها عن التخلي عن تقليد قديم في سبيل المحافظة على كيائها وتهئية نفسها للأمر الواقع . فالمعروف أن الإصلاحات التي قام بها الإمبراطور دقلديانوس كانت ترمي إلى الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية في الأقاليم الرومانية المختلفة ، لاحتد من شوكة القادة الحربيين ، ولتعطيل الحركات الانفصالية في مختلف الأقاليم^(١) . وظل نظام فصل السلطات الحربية والمدنية معمولاً به في أرجاء الدولة الرومانية حتى أبطله جستنيان الأول ، إذ رأى أن مشروع إعادة الدولة الرومانية إلى سيرتها الأولى من حيث السعة الإقليمية في الغرب يتطلب صوغ الأقاليم التي لم تنزل مهددة بأخطار داخلية أو عرضة لغزوات خارجية بصبغة حربية . فعين على إفريقية بعد فتحها رجلاً يجمع بين سلطة المدنية وأعمال القائد العام للجيش *Magister Militum* ، ومنح القائد العام للجيش البيزنطية في ولاية أرمينيا *Magister Militum Per Armeniam* سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية ، بعد أن اشتد الخطر الفارسي على تلك البلاد ، وبهذه السلطات صار لحاكم أرمينية الحربي الحق في تصريف الشؤون المدنية لذلك الإقليم وتنظيم أحوال الأهالي به^(٢) . ثم ساعدت الحوادث على تثبيت ذلك النظام الذي ابتكره جستنيان ، وما زال يتطور مع الأوضاع الزمنية التي أحاطت بالدولة البيزنطية حتى خرج في صورة البنود أو الأقاليم الحربية .

ذلك أن ضعف الدولة البيزنطية المالي ، ثم ظهور الخطر الآفاري على الدانوب أواخر القرن السادس الميلادي ، جعل من العسير على خلفاء جستنيان تكوين فرق مرتزة للجيش كما كانت الحال أيام جستنيان نفسه ، فانقلبوا إلى أبناء الإمبراطورية وغدا التجنيد منذ عهد الإمبراطور موريس عملية أكثر دقة في الأقاليم التي أعيد فتحها ، ولا سيما أرمينيا التي سار فيها نظام التجنيد على نظام

A.A. Vasiliev : Histoire de l'Empire Byzantin, I., 76.

(١)

J.B. Bury : A History of the later Roman Empire, II, 346.

(٢)

دقيق . وحارب الإمبراطور هرقل الفرس أوائل القرن السابع الميلادي بجيش مكون على هذا النمط السابق^(١) ، وكان ذلك الجيش هو النواة التي تفرع منها نظام البنود Themes فيما بعد .

لذلك يمكن أن نلمس بداية البنود البيزنطية في القرن السابع في الجيش الذي خرج به هرقل لحرب الفرس ، إذ تألف من الفرق الأرمنية و فرق الأقاليم الشرقية وتراقيا ، وإلى جانب أولئك الفرق الإمبراطورية (Obsequium Obsequentes) وبعد سقوط سوريا في أيدي المسلمين سنة ٦٣٨ م ، تراجع جيش هرقل إلى آسيا الصغرى التي غدت منذئذ موضع عناية الأباطرة ، لمواجهة الخطر الإسلامي ، ولأنها أصبحت أهم مورد للدولة تجند منها جيوشها وأساطيلها وتجبى منها أيضاً ثروتها^(٢) . وللدفاع عن آسيا الصغرى كان لا بد من وضعها في حالة دفاع دائم ، وافتضى ذلك توزيع فيالق (Themata) من الجيش على جهات من تلك البلاد تعسكر فيها بصفة دائمة . ولترغيب الجند في الاستقرار بأماكنهم واستحثاثهمهم للدفاع عن تلك المناطق التي استقروا فيها منحهم الإمبراطورية قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها ، كما منحت قائد الفيلق في الأقاليم سلطات مدنية واسعة . وبعبارة أخرى أصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية يقيم بكل منها فيلق من الجيش ويجمع قائد ذلك الفيلق في يده أعباء الحاكم المدني فضلاً عن مهام الإشراف على الفيلق . وبالتالي أعطت تلك الفرق أسمائها للأقاليم التي أقامت فيها وعرفت منذئذ باسم البنود Themes كل يحمل اسم الفيلق الخاص^(٣) .

وظل النظام الإداري للبنود يحمل طابعها حربياً فكان حاكم البند يسمى استراتيجي (Strategoi)^(٤) . وبقاء استعمال هذا الاسم يدل على أن البنود نشأت نشأة حربية بحتة وتحت إملاء المقتضيات الحربية ، كما يدل على أنها بقيت كذلك . وكان الفيلق مقسماً إلى فرق Turma وهذه بدورها مقسمة إلى ألوية Moirai وتلك إلى آليات Tagmate^(٥) . وكانت الآليات تنقسم

Byzantium : (Ed. by N.H. Baynes), (Oxford 1948), 297.

(١)

Bury : Op. cit., 348. & Byzantium, Op. cit., 280. 285.

(٢)

S. Runciman : Byzantine Civilisation, 88.

(٣)

يسمى بالعربية الأصطرطوس .

(٤)

Ibid 88 & Byzantium : Op. cit 298.

(٥)

إلى وحدات تسمى الرايات أو البنود Banda ، وهذه التسمية الجزئية هي التي اختارها المسعودي للدلالة على ما أطلق عليه البيزنطيون Thema . واستعان الاستراتيجي (الحاكم) بطبقة من الموظفين عددها أحد عشر ، يصرفون الشؤون الحربية والمدنية . وكانت سلطة الحاكم غير محدودة في الأمور المحلية للإقليم ، ولكنه كان خاضعاً لسلطة الإمبراطور ، كما كان من المتطاع رفع شكوى ضده إلى الإمبراطور . ومن ضمن طبقة الموظفين الذين يعاونون الحاكم في إقليمه كاتب الجند Chartularius ، ووظيفته توزيع أرزاق الجند والموظفين ، ثم الجابي ووظيفته جباية الضرائب . ويتلقى الأخيران الأوامر من الحكومة المركزية مباشرة^(١) ونشأت بآسيا الصغرى في القرن السابع الميلادي ثلاثة بنود كبرى سمي اثنان منها باسم الفيالق الذي يقيم به ، على حين أخذ الإقليم الحربي الثالث اسماً جغرافياً . وهذا الإقليم الأخير مثال لبنود أخرى أسست فيما بعد في القرن التاسع والعاشر الميلادي وأخذت أسماء جغرافية . ويلاحظ في هذا الصدد أن البنود التي أخذت أسماءها من الفيالق الحربية أقدم من تلك التي تحمل أسماء جغرافية ، عدا إقليم أرمينيا الذي شذ عن تلك القاعدة في هذه المرحلة المبكرة في تاريخ البنود ، وذلك لأن اسم أرمينيا كان يطلق على الفيالق الموجودة به منذ أيام جستنيان الأول^(٢) . وأول ذكر تاريخي لأرمينيا في ظل النظام الجديد في القرن السابع ورد في الأخبار التي رويت عن ثورة سرايوس قائد الفرق الأرمينية Armeniakoi في السنة الأخيرة من عهد قسطنطين الثاني (٦٦٨ م) . إذ يتضح من تلك الثورة وتفصيلاتها أن بلاد أرمينيا التابعة للدولة البيزنطية كانت تعتبر إقليماً حروبياً مستقلاً له فرقته الخاصة به ويدير شؤونه قائد يتمتع بسلطات الحاكم المدني Strategus^(٣) . أما الإقليم الآخران في آسيا الصغرى فنسمع عن أحدهما في سنة ٦٩٠ م حيث عين شخص يدعى ليونتيوس Leontius قائداً للفرق الأناطولية أو حاكماً للبند الأناطولي Anatolikoi . وتلك التسمية كذلك من مخلفات العهد السابق لظهور البنود ، إذ كانت تطلق كلمة أناطولي — ومعناها شرقي — على القائد العام للولايات الشرقية من الإمبراطورية « Magister Militum Per Orientum »

Runciman, Op. cit., 89, 90 (١)

Bury, : Op. cit., 340. (٢)

Bury : Op. cit, 341, 342. (٣)

التي كان منها سوريا وآسيا الصغرى . وعندما استولى العرب على سوريا انجلت الفرق التي كانت تتبع ذلك القائد العام نحو الغرب ، واستقرت في الجهات الواقعة شمال جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى من الخطر الإسلامي . وتبعاً للتنظيم الجديد تلاشت سلطة القائد الشرقى العام ، وأطلق على تلك الجهات الإقليم الشرقى أو الأناطولى ، وتولى قادة الفرق في ذلك الإقليم الحربى إدارة شئون الإقليم (١) .

وفي النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ظهر إقليم حربى ثالث بآسيا الصغرى أخذ اسمه من الفرق الإمبراطورية على عهد هرقل ، وهى الفرق التي استقرت في الجهات المحيطة ببحر مرمرة. إذ سمحت الدولة البيزنطية سنة ٦٨٧ م ، ٦٨٨ م لبعض العناصر السلافية بالإقامة في جزء من جهات إقليم أوبسكيون (Opsikion) ، أو إقليم الفرق الإمبراطورية . وكان ذلك الإقليم يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى تضم بينها دور اليوم . وكانت الجهات المحيطة ببحر مرمرة من ذلك الإقليم تسمى بالمناطق البحرية أو الفرق البحرية Peratic Themes ، والجهات الداخلية تسمى بمناطق الخيالة أو فرق الخيالة Cavallarii (٢) .

وفي القرن الثامن الميلادى عدل الإمبراطور ليو الثالث الإيسورى وخلفاؤه نظام البنود الثلاثة الكبرى ، حيث قسمها إلى أقاليم صغيرة ، وأسس بنوداً أخرى جديدة . ومن أمثلة تلك البنود الجديدة أن الجنود التراقيين الذين جلبهم جستنيان الثانى سنة ٧١١ م إلى آسيا الصغرى، لتعزيز البنود القائمة هناك في العمليات الحربية ضد العرب ، استقلت بنفسها وأصبحت إقليماً حربياً خاصاً بها أخذ اسمه من أولئك الجنود . وفي سنة ٧٦٥ م ظهر إقليم فرق الخبز اليابس Bucellarii . وربما كانت النواة الأولى لذلك الإقليم هى الفرق المرتزقة التي استقرت بتلك الجهات ، إذ كان يطلق اسم فرق الخبز اليابس Bucellarii في القرن الخامس الميلادى على الجنود المرتزقة (٣) . وبعد قليل من ظهور ذلك الإقليم تأسس بند آخر أطلق عليه اسم الأوبماتى Optimati . ومعنى تلك الكلمة غير معروف

Bury : Op. cit., 347, 348, & Vasiliev : Op. cit., 301. (١)

Bury : Op. cit., 348, 349. (٢)

Ibid : 343. (٣)

أيضاً تماماً من الناحية التاريخية . ولكن يستدل من حوادث ذلك الإقليم أن تلك التسمية كانت تقرن به دائماً على أنه أفقر البنود ، وأن نشأته الأولى ترجع إلى القوط الذين أسرههم القائد استيليخو Stilicho في عهد الإمبراطور أركاديوس ، وأقطعهم جهات من آسيا الصغرى جنوب البحر الأسود بالقرب من البسفور . وقد التحق بخدمة أولئك القوط فيما بعد جماعة من اليونانيين من جبال طوروس ، إذ سكنوا بأهلهم في ذلك الإقليم ، وتزوج القوط منهم ، فعرفت سلالتهم باسم القوط المتأخرين . وعلى الرغم من اصطباغهم بالحضارة الهلنستية ظل اسم أوبتاتي Optimati يدل على الأصل الوضعي أو السخرية من تلك السلالة (١) .

وكان إلى جانب تلك البنود في القرن الثامن عدة بنود أخرى بحرية لعبت دوراً هاماً ، لا يقل في خطورته عن الدور الذي قامت به البنود السالفة الذكر . وتلك البنود البحرية شأن مثلانها البنود البرية ترجع نشأتها إلى القرن السابع الميلادي ، ولكنها لم تكتمل إلا في القرن الثامن بعد إصلاحات ليو الثالث . فإقليم أبيدوس البحري تطور عن المدينة التي أعطت اسمها لذلك الإقليم ، والتي كانت ذات أهمية كبرى إبان الحملة التي أبحر بها هرقل من قرطاجنة إلى القسطنطينية لمحاربة الإمبراطور فوقاس ، إذ ألقى هرقل مراسيه في الدردنيل ووقف على أخبار القسطنطينية من حاكم أبيدوس الذي كانت له رقابة وسيطرة على المناطق المجاورة لتلك المدينة كذلك . ومن المحتمل أن تلك المدينة كان بها جباة يحصلون المكوس على السفن المارة بالدردنيل ، وأنها فيما بعد انفصلت عن إقليم بحر إيجه البحري حيث استقلت بشؤونها (٢) .

وكذلك ظهر في القرن الثامن الميلادي إقليم بحري جديد له شأن كبير ودور هام في العمليات الحربية البحرية للدولة البيزنطية ، وهو إقليم كيبيرا Kibyrhaitoi ، وحمل حاكم ذلك الإقليم قبل عام ٧٣١ م لقب أمير البحر Drungarius . وبلغ من أهمية ذلك الإقليم في القرن السابع أن أحد أمراء البحر الذين تولوا إدارة

(١) هذه التسمية مشتقة من لفظ (Bonus) بمعنى حسن ، فهي صيغة أفعال التفضيل (Optimatus) أى أشرف الأشراف ، وربما أطلقت هذه الصفة من باب الإمعان في السخرية بالألفاظ .

Bury : Op. cit., 344, N. 1.

Bury : Op. cit., 343.

شثونه وهو أبسيمار Apsimar اعتلى العرش الإمبراطورى سنة ٦٩٧ م باسم طبريوس الثالث . وهو الذى رفع ذلك الإقليم سنة ٧٣١ م إلى مرتبة البنود حيث أصبح الحاكم يحمل نفس اللقب العسكرى (Strategus) الذى أطلق على قادة البنود الأخرى (١) . وكان ذلك الإقليم يشمل أول الأمر الجهات الساحلية من آسيا الصغرى وحزر بحر إيجه التى أمدت الدولة البيزنطية بالسفن والبحارة . على أن اتساع حركات ذلك الإقليم أدت إلى تقسيمه وتأسيس بند بحرى آخر . فأصبحت الجهات الجنوبية والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى تكون بنداً بحرياً كبيراً ، على حين استقلت جزائر بحر إيجه وأطلق عليها البند الإيحيى أو بند الدوديكانيز . وكان هذان البندان البحريان خاضعين لسلطة عليا مستقلة . فكان مقدم الأسطول أو أمير البحار هو أميرال الأسطول الراسى فى مياه القسطنطينية ويلقب باسم Strategus of the Carabisiani ، وهى تسمية مشتقة من نوع من السفن تسمى قربوز Carabos ، وهى قريبة الشبه بالشوانى فى المصطلح المملوكى المصرى (٢) . ويعزى إلى تلك القيادة البحرية وإلى هذين البندان البحريين كذلك ، الفضل فى دفع العرب عن القسطنطينية ، وتعطيل حركات الأساطيل الإسلامية فى حوض البحر الأبيض الشرقى أو الحد من سيطرتها . وفى هذا الصدد دعا النشاط البحرى الإسلامى فى القرن التاسع الميلادى الدولة البيزنطية إلى إعادة تنظيم بنودها البحرية ، وأسست بنداً بحرياً ثالثاً مقره جزيرة ساموس Samos ، كما أقامت قواعد بحرية فى بعض بنودها الأوربية المهددة بالخطر الإسلامى البحرى مثل البليبونيز (المورة) وبنود إيطاليا (٣) .

والحاصل أن الإمبراطورية البيزنطية أضحت منذ القرن التاسع الميلادى مقسمة أقاليم حربية أو بنوداً تداولتها الكتب المعاصرة بالشرح وتحديد مواقعها . والأمر الذى يدعو إلى الالتفات هنا أن أهم المصادر عن البنود البيزنطية فى القرن التاسع والعاشر هى كتب الجغرافيين والرحالة العرب مثل ابن خرداذبة والمسعودى . وتلك القوائم التى حفظها الجغرافيون العرب ذات أهمية بالغة لأنها

Bury : Op. cit., 342 & Vasilieu : Op. cit., 301, 332. (١)

Runciman : Op. cit., 150 & Bygantium : Op. cit., 304

(٢) وأحب أن أشكر حضرة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة على توجيهاته وإرشاداته الطيبة فى إخراج هذا المقال .

Runciman : Op. cit., 150, 151.

(٣)

تكمل مواضع النقص في القائمة التي أوردتها الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين السابع في رسالته التي كتبها أواخر القرن العاشر الميلادي عن البنود البيزنطية De Thematibus . ويتضح من هذه الرسالة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت مقسمة إلى بنود معظمها بنود صغيرة تفرعت عن البنود الكبرى في القرون السالفة ، كما كان بعضها بنوداً جديدة من الأراضي التي ضمتها الإمبراطورية إلى حظيرتها في آسيا الصغرى . على أن تلك القائمة جاءت مضطربة في تفاصيلها وترتيبها ، لأنها وصفت الكائن الواقع ، ولما تعالج الموضوع علاجاً تاريخياً . ومن هنا كانت أهمية القوائم التي ذكرها الجغرافيون العرب في سد النقص في المصادر البيزنطية . والقائمة العربية الأولى من هذه القوائم ، وهي التي اعتمد عليها سائر الجغرافيين العرب في دراستهم للبنود البيزنطية ، هي التي استمدتها ابن خرداذبة من أسير مسلم يسمى مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، وكان قد أطلق سراحه في فداء سنة ٨٤٥ م (٢٣١ هـ) (١) . ووصف المسعودي الجرمي هذا بأنه « كان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها وممالكها ، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر (Avars) والبرغز (Bulgars) والصقالبة (Slavs) والخزر وغيرهم (٢) . »

واعتماداً على قائمة الجرمي قسم المسعودي بنود الدولة البيزنطية إلى أربعة عشر بنوداً ، بعد أن عدل فيها تعديلاً يدل على معرفته ببعض المصادر الأخرى ذات القيمة التاريخية ، ثم رتبها كما يلي :

البند الأول : « الأنتى ماتى » Al Anti Mati أي الأذن والعين على تفسير المسعودي نفسه ، وهو تفسير سليم لغوياً . ولهذا البند تسمية أخرى وهي « الناطليق » Anatolikoi أي البند المعروف باسم الشرق وعاصمته عمورية .

البند الثاني : « الأسيق » Opsikion وفيه مدينة نيقية .

البند الثالث : « الترقسين » Thrakesioi ، وبه مدينة أفسسوس (٣) .

(١) E.W. Brooks : Arabic of lists the Bygantine Themes, (J.H.S.) Vol. 21, 70.

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

Brooks : Arabic lists, 69,

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ١٥٠ ، ١٥١

البند الرابع : « بنظليا » وهى « دقابلى » . ويتضح من وصف المسعودى أنه بند « كبيراً » Kibyrhaitoi فى المصطلح البيزنطى . وهو « يتصل بالبحر الرومى . . . (وبه) حصن بوقيه واللامس ، الذى يكون فيه الغداء بين المسلمين والروم ومنه إلى طرسوس خمسة وثلاثون ميلاً ، وهو بند ضيق وحروب المسلمين عليه برّاً وبحراً . » (١)

البند الخامس : « القباذق » Cappadocia وهو يواجه الثغور الشامية وبه قلعة اللؤلؤة .

البند السادس : « البقلار » Buccellarii وأشهر مدنه أنقرة وليس للروم أطول من بند البقلار هذا ، ولا أكثر رجالاً منه . » (٢)

البند السابع : « الأفطاط » أى Optimatoi

البند الثامن : « الأرمنياق » أى Armeniakoi

البند التاسع : « فلاغونية » أى Paphlagonia

والخمسة الباقية من البنود وراء الخليج ، أى بمعنى آخر هى البنود الأوروبية وهى :

بند « طايلا » أو Tayala . ويبدو أن ذلك البند خاص بالقسطنطينية والمنطقة المحيطة بها ، وكانت « تشمل ضياع الملك والبطارقة ومروج المواشى » (٣)

بند « تراقية » Thrace

بند « مقدونية » Macedonia

بند « بلبونسية » Peloponnesos

بند « سالونيكية » Thessalonike

وتوضح تلك القائمة حالة البنود البيزنطية أيام المسعودى ، أو أيام المراجع التى استخدمها ، ولذا لم يذكر المسعودى بنود الجزيرة Mesopotamia وليكاندوس Lycandos التى أضافها الإمبراطور ليو السادس إلى رقعة الإمبراطورية أوائل القرن العاشر . كذلك هناك أقاليم أخرى استقلت فى شؤونها فيما بعد وكونت بنوداً خاصة بها ذكرها المسعودى ضمن بنود أكبر . ويمكن إتمام بنود الدولة البيزنطية

(١) المسعودى : نفس المصدر ص ١٥١ . Brooks : Op. cit., 69.

(٢) المسعودى : نفس المصدر ص ١٥٢ . Brooks : Op. cit., 69.

(٣) المسعودى : نفس المرجع ص ١٥٣ . Brooks : Op. cit., 69.

التي ذكرها المسعودي، من قائمة الإمبراطور قسطنطين السابع ، فإنه رغم جهله بالتاريخ - الأمر الذي أعطى أهمية لقائمة البنود في المراجع العربية - كان عالماً بالتقسيمات الإدارية لإمبراطوريته . ومن تلك القائمة يتضح أن الدولة كانت تنقسم في القرن العاشر الميلادي إلى سبعة عشر بنداً في آسيا الصغرى واثنى عشر بنداً في أوروبا . (١)

على أن موضع الأهمية هنا هو البنود البيزنطية في آسيا الصغرى ، لما لها من أثر في التقسيم الإداري بالشام الإسلامي . ومن الطبيعي أن المسلمين وجدوا بالشام تقسيمات بيزنطية ، وأنهم اتخذوها لترتيب البلاد وتنظيم إدارتها ، فضلاً عن مقتضيات الأعمال الحربية التي دفعت المسلمين إلى إيقاف جهودهم للدفاع عن بلاد الشام ضد محاولات البيزنطيين المتكررة لاسترداد ذلك الإقليم الغني . ولذلك قسم الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي يعزى إليه تنظيم الإدارة في الدولة الإسلامية بلاد الشام إلى خمسة أجناد أو أقاليم حربية هي :

جند دمشق ، وفي الشمال جند حمص وجند قنسرين ، وإلى الغرب والجنوب الغربي جند الأردن ويشمل الجليل وغوطة الأردن حتى البحر الميت ، وإلى الغرب من ذلك إقليم جند فلسطين الذي اشتمل على الجهات الواقعة جنوب سهل عكا ويحده البحر الأبيض من الغرب وصحراء التيه والطريق إلى مصر من الجنوب . (٢) وتلك الأسماء الجغرافية التي سميت بها أجناد الشام تدل دلالة واضحة على أن هذا النظام أخذ بأبعده عن الدولة البيزنطية ، تشبهاً بأساليبها التي استعار الماساحون الشيء الكثير منها في بناء صرح إمبراطوريتهم . وعقد المسعودي مقارنة بين البنود البيزنطية وجند الشام قائلاً : « أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب ، مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسماً أعمال

(١) هذه هي أسماء البنود في القرن العاشر الميلادي ، كما ذكرها قسطنطين :

البنود الإسيوية وعددها سبعة عشر ، هي : Anatolic, Armeniac, Thracesian,

Opsikion, Optimaton, Bucellarian, Paphlagonia, Chaldia (Trapezus (حول طرابيزون), Mesopotamia (المزيرة), Coloneia, Sabasteia, Lycandos, Cibraiot, Cyprus, Samos, Aegean, Coppadocia.

والبنود الأوروبية وعددها اثني عشر ، هي : Thrace, Macedonia, Strymon,

Thessalonica, Hellas, Peloponnesus, Cephallenia, Nicopolis,

Dyrrhachium, Sicily, Longobardia, Cherson.

(٢) (G. Le Strange : Op. cit., 26.)

مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام كجند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين . غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول « (١)

فمن تلك الإشارة السابقة نرى أن الأجناد أقاليم استقرت فيها فرق من الجيش الإسلامى ، لحمايتها وقبض أعظياتهم فيها ، على قول ياقوت (٢) . ووجود هذه الأسماء الجغرافية وعدم وجود أسماء حربية شبيهة بأسماء بنود الدولة البيزنطية مثل بند أوبسكيون « أي الفرق الإمبراطورية » دليل على أن نظام الأجناد الإسلامى مقتبس من أسس بيزنطية كانت موجودة قبلا فى بلاد الشام . فتلك الأقاليم الحربية الإسلاميه الأولى للشام تتفق تماماً مع الجهات الرومانية البيزنطية التى وجدها العرب قائمة فى تلك البلاد التى ورد لها وصف فى أحد قوانين توداسيوس حوالى سنة ٥٠ م ، وهى :

١ - فلسطين الأولى (Palestina Prima) وعاصمتها قيصرية ، واشتملت على الهضبة اليهودية ، أصبحت بعد الفتح الإسلامى جند فلسطين وغدت عاصمته الرملة .
٢ - فلسطين الثانية (Palestina Secunda) وعاصمتها بيسان (Scythopolis) وضمت الجليلين والجزء الغربى من البتراء صارت جند الأردن وعاصمته طبرية .
٣ - فلسطين الثالثة (Palestina Tertia) وتضم البتراء العربية ، دخل جزء منها فى جند دمشق وجزء آخر فى جند فلسطين .

٤ - فينيقيا الأولى (Phoenicia Prima) وعاصمتها صور ، وفينيقيا الثانية أو لبنان (Ad libanum) أصبحت تكون مع بعضها جند دمشق الكبير .

٥ - سوريا الثانية (Syria Secunda) فى شمال جند دمشق وعاصمتها أفاميا قسمت بين جند حماة وحمص . وأخيراً سوريا الأولى Syria Prima أصبحت جند حلب أو جند قنسرين . على أن ذلك الجند الأخير ظهر فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، إذ بعد نجاحه فى انتزاع شمالى العراق من التبعية لعلى بن أبى طالب أسس فى تلك الجهات إقليماً منفصلاً سمي جند قنسرين ضم إليه

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١٥٠

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، حيث يقول أجناد الشام ، ويذكر إنه يختلف فى تلك التسمية ، فألى جانب رأى المذكور يقول إن المسلمين أطلقوا كلمة « جند » بمعنى جمع كوراً ، والتجنيد هو التجميع .

الجهات التي حول حلب وأنطاكية (١) .

أما المنظمة التي كانت تفصل بين إقليم آسيا الصغرى وإقليم الشام فخضعت لنظام خاص . إذ كانت تلك المنطقة في جملتها جبلية بها بعض المعابر والممرات الهامة التي حرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة عليها للهجوم أو الدفاع . وأطلق البيزنطيون على منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدولة الإسلامية اسم منطقة الممرات أو الثغور Kleisurai ، ووضعت تحت إشراف حكام الثغور (Kleisuriarchs) (٢) . ولما ازدادت إغارات المسلمين في القرن الثامن والتاسع الميلادي رفعت تلك المنطقة إلى مرتبة البنود وأطلق على حامياتها اسم حراس الحدود Akritoi لمساعدة حكام منطقة الثغور (٣) . وكان هذا الخط الدفاعي يسير على امتداد سلسلة جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيليقيا . وأول حصن هام في هذا الخط الدفاعي هو ملطية التي تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المزدية إلى سيبسطية (Sebastea) أو سيواس (Sivas) وقيصرية إلى أرمينيا وشمال العراق . ويمر هذا الطريق من مرعش (Germanica) عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة (Zapetra) . وهذا الخط الذي يمتد من ملطية إلى عين زربة كان مخصصاً لدفع الإغارات الآتية من شمال العراق ، إذ كان هناك خط آخر يواجه سوريا من أهم معاقله المصيصة (Mopsuestia) وأدنة وطرسوس ، وذلك للدفاع عن الأراضي البيزنطية ضد حملات المسلمين .

وقامت الدولة الإسلامية زمن العباسيين بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية لتحسين حدودها . فانه عرف أن هارون الرشيد أسس إقليماً مشابهاً على أطراف البلاد الإسلامية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وجعل عليه ابنه المعتصم . إذ أدى امتداد الحدود السورية الإسلامية واتساعها شمالاً زمن المنصور وهارون الرشيد إلى تقسيم جنود قنسرين ، فصارت الجهات الشاملة لمنطقة حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل جندياً منفصلاً سمي بالعواصم . على أن لفظ العواصم كان يقصد به سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، وذلك تمييزاً لها عن الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية ، وهي الحصون التي

(١) ويسمى بالعربية كيلرج في ياقوت Byzantium, 299.

(٢) يسمى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٨) أولئك الحكام باسم كيلرج .

انظر كذلك Byzantium, 299.

سميت بإقليم الثغور . وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين ، أحدهما في الشمال ويسمى الثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق ومن حصونها الهامة زبطارة وحصن منصور والحديث ، والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرونة ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأذنة وطرسوس . (١)

وأهم الممرات في هذه المنطقة الممر القديم المعروف باسم أبواب قليقية (Cilician Gates) ثم الممر الذى يسير فيه الطريق من مرعش إلى البستان أو الأبلستين (Arabissos) . فالطريق الأول ترجع شهرته إلى العصور القديمة والعصور الوسطى كذلك ، ويبلغ طوله سبعة أميال ، حيث يبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوب طوانة Tyana ويمتد إلى حيث يطل سفح جبال طوروس على سهل قليقية . وعند أقصى الطرف الشمالى للممر تقع قمة منعزلة شديدة الارتفاع ، تبلغ حوالى ألف قدم تقريباً وتتحكم في منطقة واسعة من سهول قبادوقيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية . وعلى هذه القمة المنيعة بنيت قلعة اللؤلؤة ، التى ظلت مضرب الأمثال في المناعة وتبادلها المسلمون والبيزنطيون بوسائل الدس والخيانة مرات عديدة . وكانت تلك القلعة مفتاح الممر المعروف بأبواب قليقية . فإذا كانت في أيدي الروم لم يتمكن الجيش الإسلامى من غزو قبادوقيا ، وإذا انتقلت إلى أيدي المسلمين لم يجرؤ جيش بيزنطى على المخاطرة لاجتياز ذلك الممر . ومما أضاف إلى أهمية قلعة اللؤلؤة أن الطريق الشمالى المؤدى إلى طوانة والطريق الغربى إلى هرقله (Heraclea) يتقابلان قربها وهذا مما جعلها تتحكم في عدة ممرات هامة .

وتصف المراجع ذلك الممر بأنه ينحنى صوب الشرق ثم يتجه جنوباً حيث يطل على وادى البذندون (Podandos) البيضاءوى الشكل ، ويطلق عليه اسم مر قورش Camp of Cyrus لأن قورش الصغير عسكر فيه أثناء سيره لمحاربة أخيه . ثم يسير الممر في اتجاه مرتفع عبر وديان ضيقة شديدة الانحدار حتى يصل إلى نهايته .

وعلى الجانب الشرقى من طرف الممر توجد قلعة حصينة من الحجر الأسود على قمة تل مرتفع وتتحكم في مدخله ويطلق عليها اسم حصن الصقالبة (أو قلعة

السلاف (. ومن قمة ذلك التل المعروف الآن باسم Tekir يؤدي ممر منزلق طوله ثلاثة أميال تقريباً إلى منحني صخري يعرف باسم أبواب قليقية ، وهو الاسم الذي أطلق على الممر بأجمعه . وطول ذلك الممر المنزلق مائة ياردة تقريباً ، وعرضه بضعة ياردات فقط ، وتحيط به جدران عالية في ارتفاع عمودي ، مما جعل القلعة المعروفة باسم حصن الصقالبة تستطيع بحاميها الصغيرة إيقاف جيش كبير العدد . (١)

وأقام البيزنطيون من قلعة اللؤلؤة (حين كانت في أيديهم ، أو بالقرب منها في حالة وقوعها في أيدي العرب) عبر آسيا الصغرى إلى القسطنطينية سلسلة من المنارات ، استخدمت في إرسال الأنباء بواسطة إشعال النار . فكانت النار التي توقد على تل اللؤلؤة أو على مقربة منها يراها الحراس المقيمون على قمة جبل أرجايوس المطل على بحيرة تاتا (Tatta) ، وهذا الجبل يختلف عن جبل أرجايوس المطل على قيصرية ، ومن جبل أرجايوس المطل على بحيرة تاتا تنقل الإشارة إلى تل إيزاموس (Isamos) ومنه إلى مرتفع أيجيلوس (Aigilos) ، ثم إلى معسكر دوراليوم الكبير الذي يقع على نهر تمبريس (Tembris) على بعد ثلاثين ميلاً من أيجيلوس ، ثم تحمل الإشارة إلى محطة ماماس (Mamas) ، ثم إلى موكيلوس (Mokilos) ، حيث تعبر الإشارة خليج بيثينيا (Bythynian Gulf) ، إلى آخر منارة على جبل القيس (Auxentios) . ومن هذه المنارة تنقل الإشارة إلى حراس القصر الكبير الذين يوقدون منارته ، دلالة على وصول برقية من طرف آسيا الصغرى (٢) . وهذه الوسيلة من المواصلات ترجع إلى العصور القديمة حيث استخدمها الرومان في جهات عديدة من إمبراطوريتهم . على أن استخدم البيزنطيون لتلك الوسيلة في آسيا الصغرى في القرن الثامن الميلادي اقتصر على إرسال إشارة واحدة تحمل نبأ قيام إغارة إسلامية . ولكن سرعان ما أدخل ليو الرياضي (٣) تحسيناً جديداً على ذلك النظام ، واستخدمه الإمبراطور ثيوفيل

(١) Bury : A, History of the Eastern Roman Empire, From the fall of Irene to the Accession of Basil I. 245, 246.

Bury : Op. cit., 246, 247.

(٢)

(٣) ليو الرياضي أحد علماء الدولة البيزنطية على عهد الإمبراطور ثيوفيل ، واشتهر بتضلعه في العلوم الرياضية وميله إلى الفلسفة ، وزار كثيراً من المكتبات للدراسة والاطلاع واقتناء المؤلفات ؛ ثم ألحق عصا التسيار في القسطنطينية . وعاش هناك ليو عيشة كفاف ، منكبا على تعاليم الطلاب علم الهندسة . والتحق طالب من طلابه بخدمة أحد حكام الدولة البيزنطية ، وصحبه في إغاراته على

(Theophilus) في خط آسيا الصغرى . وهذا التحسين الجديد يتلخص في إعداد ساعتين تديران في زمن واحد ، توضع إحداهما في القصر الإمبراطوري والأخرى في القلعة البيزنطية القريبة من حدود قيليقيا . ثم تتفق السلطانان المقيمتان في القصر والقلعة على اثنتي عشر حادثة ، ويرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثنتي عشرة ، وتكتب كل حادثة أمام العدد المخصص لها على واجهة الساعة . فإذا حدث أن أحس حاكم قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً بأن العدو على أهبة عبور الحدود ، انتظر إلى الساعة الواحدة لإشعال النار ، وعند ما تصل تلك الإشارة عبر المخططات الدافقة الذكر حتى تصل إلى القصر الإمبراطوري ينظر الحراس إلى الساعة ، فيعملون متى أشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ، ويقفون بذلك على معنى تلك الإشارة ، أى أن العدو أخذ يحرك ركابه للهجوم ، والإشارة التي يعرف حراس القصر أنها أشعلت في الساعة الثانية تدل على أن الحرب وقعت بين الطرفين ، وتلك التي أشعلت في الساعة الثالثة على أن العدو أعمل الحرائق وهكذا . . . (١)

وكانت الحملات البيزنطية على العراق تتبع غالباً طريق البستان — مرعش ، حيث تجتمع قوات البنود الآسيوية الشرقية مع قوات البنود الغربية عند قيصرية ومن ثم تسير في ذلك الطريق مختربة جبال طوروس إلى البستان ، عبر ممر كورو — خاي (Kuru-Chai) (٢) . واستخدم العرب في حملاتهم واتصالاتهم بآسيا الصغرى نفس الممرين الرئيسيين اللذين عرفهما البيزنطيون . فأطلقوا على الممر الذي يصل مرعش بالبستان درب الحدث . وترجع هذه التسمية إلى ما لقيه العرب عند ذلك الممر من هزائم متكررة زمن الفتوحات الإسلامية الأولى وكان لها تأثير سيئ (٣) . أما الممر الثاني فكان الطريق الذي يسمى أبواب قيليقية ، وكان مستخدماً للبريد والسفارات المتبادلة بين الخلفاء والأباطرة ، وربما كان هذا

أراضي الدولة الإسلامية ، حيث وقع في الأسر . ولما علم المأمون بأن الأسير البيزنطي خير بعلم الهندسة ، عقد له مجلساً مع العلماء المسلمين الذين أدهشهم تفوق الأسير البيزنطي عليهم ، ووقفوا على اسم ليو الرياضي المعلم الأكبر . فرغب المأمون في استدعائه إلى زيارة لبغداد ، وكتب إلى الإمبراطور ثيوفيل يعرض عقد صلح دائم مع الدولة البيزنطية مقابل الإذن ليو بتلبية هذه الدعوة . ولكن الإمبراطور البيزنطي رفض إجابة المطلب ، لأن العلوم كانت تعتبر من أسرار الدولة .

(١) Bury : Op. cit., 247, 248.

(٢) Bury : Op. cit., 248.

(٣) Le Strange : Op. cit., 121, 122.

الاستخدام السلمى هو الذى جعل المسلمين يطلقون على الجزء الجنوبي من ذلك الممر اسم درب السلامة (١).

ويعتبر العرب ذوو بصيرة نافذة فى توجيه جهودهم الحربية منذ زمن مبكر إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن غاب عنهم أن القسطنطينية فى ظل النظام الدفاعى الحديد سوف تستعصى على أولئك الفاتحين مهما أوتوا من ضروب البسالة والمغامرة . وتجلت تلك الظاهرة بصورة مثلى فى نجاح الدولة البيزنطية فى القضاء على المحاولة الإسلامية الكبرى للاستيلاء على القسطنطينية سنة ٧١٧ م ، إذ وقفت الجيوش الإسلامية عاجزة أمام بند القسطنطينية الذى أصبح بفضل الامبراطور ليو الثالث صخرة كؤوداً فى سبيل تقدم المسلمين . فكانت العوامل الجغرافية لذلك البند والنار الإغريقية وهى السلاح الفاتك الذى مكن البيزنطيين من تحطيم حلقة الحصار التى فرضها المسلمون على العاصمة ، وأنزل بأسطول المسلمين وبجندهم خسائر فادحة . واضطر المسلمون أخيراً أمام فشل خططهم لتطويق بند القسطنطينية وما تلا ذلك من ألوان الضنك والعناء اللذين حلا بهم أن يرفعوا الحصار فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م تاركين القسطنطينية تؤدى رسالتها فى الدفاع عن أوروبا (٢).

كانت هذه الحملة آخر المحاولات الإسلامية الجدية للاستيلاء على القسطنطينية أوائل العصور الوسطى . وكان لهذا الفشل رد فعل فى موقف المسلمين من الدولة البيزنطية ، إذ انقلبت محاولاتهم الحربية سلسلة متصلة من الإغارات البحرية والبرية على آسيا الصغرى أملاً فى تحطيم البنود التى أزهدت الجيوش الإسلامية فى حملاتها على القسطنطينية . غير أن النظام البيزنطى كان أبعد من أن ينال منه المسلمون ، وكل ما ناله المسلمون كان إما نصراً مؤقتاً أو اندحاراً مؤكداً . على أن استعراض تلك المحاولات تفصيلاً يؤدى إلى كثير من التكرار ، ولذا تكفى الإشارة إلى حادثتين هامتين تتجلى فيهما محاولات المسلمين واستطاعة البنود أن ترد تلك المحاولات على أعقابها . ففي عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥ م) قامت حملة بحرية من الإسكندرية للاستيلاء على قبرص . ولكن الإمبراطور كان على علم سابق بقيام تلك الحملة . فأمر حاكم بند « كبريا »

(١) Ibid. : 134.

(٢) Bury : Op. cit., 401, 402, 403.

بأن يتقدم لملاقاة الأسطول المصرى . فلم يكد هذا الأسطول يصل إلى مياه قبرص ويلقى مراسيه فى (Keramera) حيث أنزل الجنود على الشاطئ ، حتى حاصر الأسطول البيزنطى الميناء وهاجم الأسطول المصرى على حين غرة هجوماً أغرق معظم سفنه ما عدا خمساً فقط . وكان لتلك الهزيمة أثر كبير فى نشاط الأسطول المصرى الذى اختفى من مياه البحر الأبيض الشرقى مدى مائة سنة تقريباً ، بسبب بند « كبريا »^(١) . وتجلّى أثر تلك الهزيمة البحرية أيضاً فى نشاط بند « كبريا » البحرى ومؤازرته لنشاط البنود البرية فى تقليم أطافر الغارات التى شنّها العباسيون على آسيا الصغرى . فى سنة ٧٣٣ م والخليفة يومئذ هشام قام القائد المسلم ثمامة بن وقاص ، وهو باناكيس (Banaces) فى تاريخ ثيوفانيز بحملة على شواطئ إيسورة للاستيلاء على بعض المدن الساحلية . فأرسل الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى بنود أناتوليا ، وأرمينيا ، والبقلار بأن تنفذ قواتها لاحتلال الممر الذى تقدم منه ثمامة وقطع خط الرجعة عليه . أضف إلى ذلك أن بند « كبريا » البحرى اشترك فى تلك العملية الحربية ، إذ احتلت سفنه المياه الإقليمية لشاطئ إيسورة عند مدينة Syce وقطعت الاتصال بين ثمامة وبين السفن السورية التى أبحرت معه^(٢) . وإذا كان ثمامة استطاع أن يفر من تلك الحلقة التى ضربت حوله فإن جهود البنود البيزنطية وتكاتفها قضى على حملة إسلامية كبرى .

أما الحادثة الثانية فهى تخريب عمورية رداً على غارة الإمبراطور ثيوفيل سنة ٨٣٧م على زبطرة . إذ عول الخليفة المعتصم على الانتقام من الدولة البيزنطية بالاستيلاء على عمورية موطن الإمبراطور ثيوفيل والأسرة البيزنطية الحاكمة . ويبدو أن المعتصم هدف أن يجعل من عمورية بعد استيلائه عليها خطوة تمهّد له السبيل فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وتجديد قصة الزحف الإسلامى الأول وإذا كان المعتصم جعل « السيف أصدق إنباء من الكتب » فى العمليات الحربية

G. Hill : A History of Cyprus (Cambridge 1940), 291.

(١)

(٢) انظر Theophanes : Chronographia (Parisus), 375. حيث يقول بصد

تلك الحملة :

“Huius rei nuncio accepto Imperator illico litteras ad Michaelem Iorientalium, ad Manem Bucellariorum, et ad Bardanem Armeiniacorum Duces dedit : qui occurrentes, hostis exitum, qui clusrae aggressar difficilis erat, occupauerunt. Cibyrhaeotarum Vero classis cum Petro Duce et Protospathari superueriens ad Castrum postum appincit.”

التي قام بها في زحفه وتدميره لعمورية ، فإن الكتب كانت بدورها أصدق من السيف في ذكر المجهودات التي قامت بها البنود البيزنطية بآسيا الصغرى حتى جعلت تلك الحملة الكبرى تتمخض في نتائجها العامة عن مجرد غارة للتدمير والتخريب لا عن خطوة ترمى إلى أهداف أخرى أوسع مدى من مجرد الهدم والانتقام . والأمر الهام هنا هو استعراض حركات كل من المسلمين والبيزنطيين ومدى اعتماد الفريقين في تلك الحركات على الإفادة من مظاهر القوة والضعف في نظام البنود في آسيا الصغرى وكيف نجح ذلك النظام البيزنطي في هدم الحملات الإسلامية وجعل نجاحها زائفاً .

أعد المعتصم ثلاثة جيوش لغزو آسيا الصغرى ، سار أحدها تحت قيادة الأفشين عبر جبال طوروس من درب الحدث ، وزحف الجيشان الآخران تحت قيادة الخليفة نفسه وأشناس عبر أبواب قليقيا ، واتخذت تلك الجيوش الثلاثة أنقرة نقطة التلاقى ^(١) قبل الزحف على عمورية . على أن الإمبراطور البيزنطي علم بخطة المسلمين وأنهم يريدون الاستيلاء على أنقرة أولاً . فجمع قواته عند نهر هاليس Halys ، حيث قدر أن المسلمين سوف يزحفون من طريق ساندوس — بارناسوس Soandos-Parnassos الذي يسير قرب ذلك النهر . وبذلك يستطيع قطع الطريق على الجيوش الإسلامية . وعلم الخليفة بدوره حركات البيزنطيين ، وعمل على استجلاء كنه الموقف البيزنطي قبل التقدم صوب أنقرة . فأرسل إلى أشناس الذي كان يزحف بجيشه أمام قوات الخليفة يأمره بالوقوف وأن يحاول القبض على بعض أسرى يدلونه على موقف الإمبراطور وجيشه . كان أشناس إذ ذاك في منطقة تسمى مرج الأسقف والخليفة في إحدى جهات تلك المنطقة وتسمى المطامير . فبعث أشناس أحد رجاله ويسمى عمر الفرغاني لاستطلاع تلك المنطقة في قوة عددها مائتي فارس . واتجه عمر إلى قلعة قرة (Kleisurarch) التي كانت مقرراً لحاكم حدود بند قبادوقيا ، معتقداً أن ذلك الحاكم وجنده لا بد أن يكونوا على علم بموقع قوات الإمبراطور ، لما تتمتع به قلعته من مكانة استراتيجية هامة . وتمكن عمر من أسر أحد فرسان البيزنطيين من منطقة قلعة قرة ،

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ١٢٣٦ .

وقفل به راجعاً^(١) . لكن بتروناس Petronas قائد القوات الإمبراطورية في تلك المنطقة علم بحركات عمر في الوقت المناسب ، فأمر قادة البنود الأرمينية والبقلار وفلاغونية بالزحف من الشمال وأن تنضم قوات بنود أناتوليا وأوبسيكون وقبادوقيا إلى قوات حكام الثغور في سلوقية وخارسون Charsianon ومنع عمر من الهروب من ناحية الغرب أو الشمال ، على حين كان نهر هاليس نفسه عقبة في الجانب الشرقي ووقف بتروناس بقواته في الجنوب^(٢) . ورغم نجاح بتروناس في تمزيق قوات عمر ، فإن الأخير نجح في التخلص من المأزق ومعه عدة من الأسرى الذين أدلوا لأشناس بمعلومات قيمة عن معسكر الإمبراطور^(٣) . وإذا كانت الجيوش الإسلامية أفادت من تلك المعلومات واستولت على أنقرة وعمورية ، فإن تعاون قوات البنود البيزنطية أثبت للخليفة أن التقدم إلى ما بعد عمورية أمر عزيز المنال ، ولا سيما أن الإمبراطور تجنب الاشتباك مع المسلمين وتقهقر إلى مدينة دوراليوم في بند أوبسيكون . وبعبارة أخرى كانت خطة البيزنطيين استنفاد قوى أعدائهم أثناء زحفهم في البنود ليعجزوا عن متابعة وتحقيق أهدافهم .

وهكذا وقفت البنود البيزنطية بآسيا الصغرى خطأ دفاعياً مرناً منيعاً ضد التقدم الإسلامي ، تصمد له حيناً ، وتشتي أمامه أحياناً ، لتتذرف به في الوقت المناسب إلى الوراء ، أو يتراجع الخط الدفاعي بانتظام لإجهااد المسلمين واستنفاد قواهم . كل ذلك دون أن تنال الإغارات الإسلامية المتكررة من تلك البنود أو تعرقل حياتها ، إذ ظل سكان تلك البنود يتمتعون بروح معنوية عالية وينعمون بحضارة زاهرة ، جعلتهم يحتملون مصائب الغزو في صبر وجلد ، يقبلون على فلاحه أراضيهم وبساتينهم بعد انتهاء كل غارة ، دون يأس أو ضجر ، ويرعون اقتصادياتهم ، فيزرعون الأراضي أوقات السلام ، ويأكلون من غرس أيديهم استعداداً لما سوف يأتي به المسلمون .

إبراهيم أحمد العدوى

(١) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٢٣٨

(٢) & Bury : Op. cit., 121, 123 & Vasiliev: Byzance et les Arabes, 149, 150, ry : Op. cit., 125.

(٣) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٢٣٩